

عرض كتاب \*

Stanley H . King . Five Lives at Harvard : Personality  
Chang During College , Harvard Univ . Press . 1973

## خمسة وجوه من هارفارد تغير الشخصية خلال السنوات الدراسية الجامعية

لعله مما يغرى بقراءة الدراسة التي نعرض لها ما هو معروف عن جامعة هارفارد كواحدة من جامعات الدرجة الأولى في العالم ، و ذلك لعديد من الاعتبارات . فهي شريك اساسى فى الحياة العملية بكافة مجالاتها فى امريكا ، و من ثم فى العالم كله بحكم ما لأمريكا من وزن ، و منها خرجت الدراسات المتميزة التي يعرفها المتخصصون فى الفروع العلمية المختلفة ، و يندر ان تجد استاذا جامعيا امريكيا متميزا فى فرع علمى ما إلا و قد عمل بها لفترة من الفترات ، و يفخر خريجوها بأنهم خريجوا هارفارد لأن شهادتها تفتح لهم ابواب العمل ، و تعطيم شعورا بـاعتزاز باعتبارهم من الصفوة الثقافية نظرا لانهم تلقوا دراسة على مستوى رفيع ، و قبل ذلك لانهم لم يلتحقوا بها إلا بعد أن خضعوا لعملية انتقاء عسيرة فى شروطها . و لا يقتصر الأمر على التفوق الاكاديمى للجامعة ، بل هى حريصة على الابقاء على تقلييد طويل فى التفوق الرياضى ، إضافة إلى مجالات الابداع الفنى و الأدبى عملا بفكرة الشخصية المتكاملة . و هذا التفوق فى هذا

المجال أو ذاك ينتشر باعتباره قيمة بين الطلاب و أعضاء هيئة التدريس ، و لتكلف القيمة قوتها الدافعة إلى أن يكون بعض خريجها من الشخصيات البارزة فى المراكز القيادية المتنوعة ، حتى درجة رئاسة الجمهورية .

تعن تلك الهالة التي تحيط بهارفارد أو غيرها من الكليات أو للجامعات الأولى فى

العالم مثل يل أو طوكيو أو كمبريدج تظل مدعاة للانبهار ، و من ثم الشعور بالرتاء للذات إن ظلت معرفتنا بها معرفة عن بعد ، و كلما اقتربنا كلما تبينا أن التفوق فى مقدورنا وليس شيئاً مستحيلاً ، لأن التفوق لا يتوقف على الامكانيات التى تتيحها الامكانيات المادية ، و انما هو بالحرى تفاعل مع الامكانيات ، و فى عملية التفاعل تلك يتعرض الانسان فى كل مكان و زمان لعوامل الصراع و الاحباط ، سواء كانت الامكانيات المادية وفيرة أو شحيحة ، و المهم هو التكيف الناجح مع الوسط و التغلب على العوامل المعوقة ، فتكون المحصلة فى النهاية هى التفوق .

هارفارد من داخلها :

يذكر الباحث الذى قام بالدراسة أن هارفارد مكان يسع المتميزين من الطلاب ، و هو ايضا يسع الطلاب الذين يرغبون فى قضاء سنوات دراستهم بأقل جهد ، المهم أن يتخرج و هو يحمل طابع "الجنرالمان" كتقليد طويل مستمر منذ نشأتها . و الأكثر من هذا لفتا للانتباه أنه اذا كان بعض الطلاب يكتسبون خبرات إيجابية اثناء سنوات دراستهم ، فان هناك من يكتسب خبرات سالبة ، بل هناك من يفسد و ينحرف . حقيقة إن زبائن هارفارد من المتفوقين من خريجي المدارس الثانوية رفيعة المستوى ، و اكثرهم أيضا أبناء اسر ثرية مثقفة ، مما يشكل عاملا من عوامل تميزها ، الا أن هذا العامل ذاته يعتبر من عوامل سوء التكيف لدى بعض الطلاب ، لأن امثال هؤلاء المتفوقين ابناء الاسر الارستقراطية يقلب عليهم طابع التحفظ و التعالى و الحرص على المسافات الاجتماعية فى التعامل ، و هذا ما قد يؤدى بالطلاب اصحاب الشخصيات المنفتحة إلى الشعور بالعزلة و افتقاد الاندماج فى مثل ذلك المناخ الاجتماعى . يذكر احدهم أنه أثر الابتعاد عن زملائه لأنه وجدهم يعاملون معه بطريقة رسمية جافة ، و ان حاول اختراق تحفظهم ببعض النكات لهم لم يجد الا الصلود . و يزداد الامر سوءا إن كان الطالب صاحب شخصية تتسم بالخجل ، لأن المناخ لا يسهل عملية الاتصال بالآخرين ، فيذكر طالب أخر أنه حين جاء إلى هارفارد كان يشعر بأنه فى استطاعة أن يسيطر على المقررات الدراسية بيده اليمنى ، بينما يده اليسرى مشغولة بالموسيقى و التأليف للمسرح ، و لهذا كان سعيدا فى عامه الدراسى الأول ، لكنه

أصيب بعد ذلك باحباط جعله يترك الكلية لمدة عام هائما على وجهه فى اوربا ، عاد بعدها مقتنعا بان خبرة الحياة العملية هى الخبرة الحقيقية ، وانه مهما عاش داخل امريكا فلن يكون بوسعه أن يفهم من الحياة الكثير ، لأن الحياة - بالنسبة له - هناك فى اوربا . و من الطلاب من ترك هارفارد ، لا لمدة عام ، و انما لينتقل الى كلية أخرى ، أو ليرك التعليم كله نظرا لأنه لم يستطع التكيف هناك : و من بين من يكمل دراسته طلاب يتركون هارفارد غير أسفين على شئ ، لأنهم لم ينجحوا إلا بأقل قدر ممكن من التكيف .

لكن هذا لا يعنى بطبيعة الحال أن الطلاب دائما غير متكيفين ، و انما يعنى أن الخبرة الجديدة ، و هى الحياة الجامعية ، تجئ فى فترة حرجة من حياتهم ، ألا و هى فترة المراهقة ، تلك الفترة التى يضع فيها المرء أمام عينيه السؤال الابدى : من أنا ؟ و يجد من البيئة المحيطة ما يساعده على التوصل إلى اجابة صحيحة ، أو يجد ما يدفعه إلى تبني اجابة خاطئة .

**أزمة الهوية :**

و سؤال مثل من أنا ؟ و ماذا أعمل ؟ و كيف يكون المستقبل ، و ما حقيقة العالم و حقيقة الآخرين .....، إنما هو تعبير عن محاولة البحث عن الهوية . لذلك يضع مباحث فى هذه الدراسة مفهوم " الهوية " فى مقدمة المفاهيم التى يستخدمها كأنوات ذهنية فى عقبه .

يذكر الباحث أنه فى هذا المجال قدم أدبيات التحليل النفسى نموذج " أزمة الهوية " لتفهم ما يعترى الشخصية من تغير . و الأزمة كما يشرحها أرين أريكسون، استمرار لما قدمته أنا فريد ، هى فترة من الانقطاع و الاضطراب فى عملية نمو الشخصية ، و تجئ نتيجة لمحاولة المراهق أن يشعر بذاته المستقلة عن والديه و عن يمثلون السلطة لديه . و فى تلك المحاولة يمكن أن يحدث صراع و تمرد قد يؤدى بالمراهق الى اعمال تثير غضبه و غضب الوالدين ، فيصحب الصراع الخارجى صراع داخلى مشوب بالقلق و التوتر . و النتيجة النهائية إما اعادة التكامل و تواصل عملية نمو الشخصية فى حالة إجتياز المراهق للأزمة ، أو حدوث تشتت للأنا ego إن كان الحل صعبا . لكن

ان لم تحت الازمة فى فترة المراهقة ، فمن الصعب بلوغ النضج الانفعالى فى الفترات العمرية التالية .

لكن ، هل حدوث الازمة شئ حتمى فى فترة المراهقة ؟ يوجه الباحث انظارنا الى أن نموذج الازمة مشق من الحالات التى تعانى اضطرابات نفسية حادة ، مما يجعلنا نظن أن الازمة شئ حتمى ، بينما من الممكن أن يحدث التكامل فى النمو ، و أن يكن لصعوبته ، إلا أنه بدون أزمة بالمعنى المفهوم . فمن الممكن إن توفرات الظروف التى تسهل النمو أن يصل الفرد ما بين خبراته القديمة و المواقف الجديدة ، و ان يكامل ما بين ما سبقت به ألفة ، حتى و أن كان مدفونا فى الذكريات البعيدة ، و بين ما لم يآلفه بعد . و فى هذه الحالة يمكن الاعتماد على نموذج التكامل فى النمو ، لأن معظم الناس يمكن اعتبارهم "عاديين" لا مرضى أو يعانون اضطرابات نفسية حادة . و كذلك الحال مع الطلاب موضع الدراسة .

### الكفاءة و الفاعلية النفسية :

و يحدد كل من مفهوم الازمة أو التكافل بناء على تحديد مفهومين آخرين .  
المفهوم الأول هو مفهوم "الكفاءة النفسية" و هو يضيف مدى استجابة و سلاسة عمل الجوانب المتنوعة فى نسق الشخصية . هناك عوامل الدافعية التى تمثل فى : الحاجات ، و الحوافز ، و الأهداف . و الجوانب الموجهة للسلوك التى تتمثل فى : المعتقدات ، و الاتجاهات ، و القيم . و عوامل المهارة فى اداء السلوك و تتمثل فى : القدرات المعرفية ، و الاتساق . ثم عوامل الضبط و النقد و التحليل و تتمثل فى مفهوم الذات ، و الضمير ، و آليات الدفاع و المبادرة . و تصل الكفاءة مداها إن استطاع " الأنا " أن يتوسط تلك العوامل كلها دون ان يكبت طاقة عاطفية زائدة تحت ضغط الشعور بالذنب أو القلق و الصراعات الداخلية ، مما يترك للشخصية قدرا من الحرية لاختيار البدائل فى العامل مع الوسط ، فيكون التكيف سهلا مرنا و تتوظف الطاقة النفسية فى توجهات ابداعية .

أما مفهوم الفاعلية فيضيف درجة قدرة الشخصية على التعامل أو الالتحام بحيوية و نشاط مع البيئة ، فتعدل سلوكها أو تعدل البيئة طبقا لمطالبها و طبيعتها ، و

طبقا لمحددات البيئة فى الوقت ذاته ، فيمكن للفرد أن يغير سلوكه ليحدث التكيف أو أن يغير البيئة لتشبع حاجاته ورغباته بون أن يتسبب فى احداث قدر كبير من التوتر والصراع فى الوسط الفيزيقي أو الاجتماعى . ونلاحظ هنا ان مفهوم الكفاءة يعتمد على مكونات الشخصية ، بينما الاطار المرجعى لمفهوم الفاعلية خارجى ، مما يعنى أن الحكم على التكيف لا يكون من منظور واحد ، فقد يكون السلوك كفنا بمعنى انسجام جوانب الشخصية فى الاداء مع أقل قدر من الصراع ، لكنه لا يؤثر فى البيئة ، وقد يكون السلوك فعالا بمعنى احداثه تغييرا فى البيئة ، لكن باكبر قدر من التوتر والصراع فى الشخصية . لذا يجب الأخذ بالمفهومين معا لملاحظة الديناميات بين العمليات النفسية والوسط أو القوى المحيطة .

### منهج البحث :

يقتصر الكتاب على تقديم خمسة وجوه من هارفارد ، ويحكي الباحث قصة كل طالب بدءا من الطفولة والصبا والخلفية الأسرية ومراحل التعليم ، مرورا بالسنوات التى قضاها فى هارفارد وما فيها من احداث ذات تأثير قوى على تطور شخصيته فى جانب من الجوانب . ويراعى الباحث فى سرده توضيح المفردات التى وضعها كمحور للدراسة تملئ يتضح مغزى التطورات التى تعرضت لها كل شخصية .

تلك الوجوه الخمسة إنما هى نماذج لأنماط الشخصية التى تخرج من هارفارد ، لكن البحث فى الاصل كان يشتمل عينة من ٦٠٠ طالبا ، اختير منهم خمسون لكى تدرس حالتهم دراسة عيادية Clivicel† . ومن هؤلاء وقع الاختيار على اولئك الطلاب الخمسة ، ويعنى ذلك أن الحكايات الخمس انما هى ثمرة لجهود بحثه طويلة شاقة على عينة كبيرة من الطلاب ، أثر الباحث ألا يقضى بحثه عند حدود ما تقدمه المعلومات المتجمعة من بطاريات الاختبارات والاستبيانات لعدد من الطلاب لا يمثلون شيئا حيا بالنسبة له ، فاستكمل بحثه بجانب فنى آخر ليتعامل مع بشر من لحم ودم ، يحملون مشاعر وافكار ، ويحلمون ويحبطون ، يتبادل معهم الحديث ويطبق عليهم اساليبه العلمية ، لا باعتبارهم مرضى ، ولكن ليضع يده على التطور فى الشخصية الذى لا يمثل انقلابا حادا او انحرافا . ويتلخص الجانب الفنى ( التكنيك ) فى دراسة

اولئك الطلاب فيما يلي :

١ - فى السنة الدراسية الأولى : مجموعة مقابلات مع كل طالب كان الركيذ فيها على النشاطات والاهتمامات وتقديرات الاساتذة ، و اسجابة الطالب للمقرارات الدراسية ، وكيفية تقسيمه لموقفه ، و خصائص ثلة الرفاق ، و مدى شربه لقيم و معايير هارفارد ، وينسى أسرته و علاقاته بها ، يتطور نموه الشخصى ، و ذكرياته المبكرة و خبراته الهامة خارج الاسرة . و يطلب منه ان يكتب مقالا ليصف يوما فى " حياة هارفارد " و يطبق عليه اختيار بقع الحبر و التات TAT

٢ - فى السنة الدراسية الثانية و الثالثة : مجموعة مقابلات تركز على علاقات الطالب بوالديه و افراد أسرته ، و استجاباته لبداية السنة الدراسية ، و تطور علاقاته برفاقه ، و كيفية استجابته بالمقرارات الدراسية ثم يكتب مقالة عن يوم فى " حياة هارفارد " .

٣ - فى السنة الاخيرة : مقابلات فقط ، و يطلب من كل طالب تقويم خبراته فى السنة الأخيرة له ، و خطة المستقبلية للعمل ، و اهدافه من الحياة ، و يطبق عليه مرة أخرى اختبار بقع الحبر و التات و كانت المقابلات تسجل ثم يتم تعريفها .

و يقدم الباحث قصة كل طالب فى صورة قطعة ادبية ، لكنها ليست من نسيج الخيال ، و انما من نسج جهود علمية تحاول الكشف عن واقع النفس البشرية و واقع الجامعة . و ربما كانت تلك القصص وسيلة منهجية لتضع بين يدي القارئ فى يسر ما تعجز عنه الارقام و المصطلحات العلمية الصارمة ، فيفيد منها أكبر فائدة ، و يقوم العلم بدوره التنويرى بين الناس .

و لعلنا فى حاجة إلى مثل تلك الدراسات عن جامعاتنا لنعرف لماذا يتفوق المتفوقون من الطلاب رغم ضعف الامكانات بالنظر إلى امكانات هارفارد و غيرها ، و لنعرف كيف نستثير الدافعية لدى الخامين من الطلاب ليتفوقوا . و الاكثر من هذا أهمية أن نتعرف على بنية المجتمع الطلابى ، و هو مجتمع يضطرب بشتى الانفعالات و الصراعات ، و إن بدا على السطح هادئا . لكن أيا كان القضية التى نببحثها فى التعليم الجامعى فهى محتاجة الى معالجة من منظور فرع علمى أو أكثر ، و محتاجة الى جهد و صبر و جدية فى العمل ، إن كنا نؤمن بجوى البحث العلمى .